من تراب الطريق (٤٣٩) في التقليد والمحاكاة (*)

لا يوجد آدمى إلاّ ومارس بقدر أو بآخر التقليد والمحاكاة ، إراديا أو غير إرادى ، ومنا من يلحظ أو يضبط نفسه متلبسًا بالمحاكاة والتقليد ، ولكن قلّما يفكر أحد فى منبع وقدر الآلية النفسية لهذه المحاكاة . هل تحاكى آليات ما تدركه حواسنا بالسماع أو بالرؤية للأقوال والأفعال ، بحيث تفرض هذه المحاكاة نفسها فرضًا على أفكارنا أو خيالنا فنردد أو نمارس تلك الأقوال أو الأفعال . أم أن المحاكاة تنطوى على ما هو أعمق من ذلك ؟!

إننا لوقت يقصر أو يطول ، نقرأ أحيانا أفكار الغير ونتبناها ، ولو تأملنا للاحظنا أننا نكرر ما يقول ، ونأتى ما يفعله ؟ هنا يكون التقليد قراءة ونقل أفكار أو محاكاة أفكار ، يؤدى إلى تشابه أقوال وأفعال . وكثيرًا ما ينتقل ذلك بين الجماهير بسرعة خاطفة تردد فيها بالتقليد والمحاكاة ذات الألفاظ والعبارات ، وتمارس ذات الأفعال ، بذات الاتجاهات .. ترى ذلك مثلا فى المباريات الرياضية التى تغلب فيها على الجماهير ـ روح القطيع ، فيصبح المجموع كالجوقة الموسيقية ، أو جماعات المنشدين الذين يرددون على إيقاع واحد ذات مقاطع الأغانى أو التواشيح ، وترى ذلك فى مظاهرات الاحتجاج الغفيرة ، وفى تجمعات الطلبة والعمال والموظفين لغرض من الأغراض التى أهاجتهم وحركت مجاميعهم فاتفقت أقوالهم وأفعالهم على محاكاة تسرى بينهم كما تسرى النار فى الهشيم . وشىء قريب من ذلك تراه

(*) المال ٢٨/ ٤/ ٢٠١٠ .

فى احتشاد حجيج مبتهل إلى الله بدعائه وتضرعه ، أو فى صيحة الجنود عند التآزر على الدفاع أو عند القيام بالهجوم ، وأيضا فى أثناء الفرار. هذه الجموع تتبع المحاكاة باللاوعى ، مشمولة بروح القطيع ، لا تتخذ للتقليد أو المحاكاة قرارًا ، ولا تقبل عليه قاصدة متعمدة مقررة ، بل تتداعى الجموع إليه تداعيًا تلقائيا ، كأن الجموع تقرأ أفكار بعضها البعض فى لا وقت ، أى بالتداعى أو التحاكى التلقائى الذى لم تتح له فرصة للتفكير واتخاذ قرار ، وإنما عن طريق ما تدركه الحواس .. أولًا وأخيرا .

إذا صح هذا التأويل ، فإنه يكشف لنا عن أن التقليد الذى لا ينقطع بين البشر فى كافة مجتمعاتهم ، هو أظهر وأبلغ الظواهر على أن أفكار البشر تتخاطب أحيانًا وفى ظروف ومناسبات خاصة ، بغير إثارة مادية من السماع والرؤية ، وأن وجود أو عدم وجود هذه الإثارة لا يحقق عملية التقليد التى هى بدءًا وانتهاءً ـ تَخَاطُبٌ بالفكر بين البشر ، ونشاطٌ فى الفكر لدى البشر .

وقد تقرأ كتابًا لأفلاطون أو جوستاف فلوبير أو الجاحظ ، فيغير فى نظرتك لما معك وما حولك .. وهؤلاء قد ماتوا وفارقوا دنيا الناس من قرون بعيدة قبل أن نولد . ومع ذلك فإن عقولهم تخاطب عقلك ، لأن بعض أفكارهم مدونة فى كتبهم التى تقربهم إليك ، وربما كان هذا شأن بعض من كانوا يسمعونهم حال حياتهم . فالكتاب من حيث مادته ، والصوت من حيث صفاته وطبقاته وأسلوبه ، ومن حيث هو وسيلة تقارب مادية بين اثنين أو أكثر من الأحياء . هو ضمن عناصر مادية واسعة الاستعمال كدافع إلى التخاطب ، ولكنها ليست عناصر فى ذات التخاطب ،لأنه تخاطب عقول لا ينهيه الموت ، ما دام يوجد حىّ يشترك فى المخاطبة والخطاب . بل

لا ضرورة لمعرفة صاحب الفكرة .. فكم من الأفكار والأقوال متداولة بين البشر فى مختلف الأزمنة ولا نعرف ولا يعرفون أصحابها . لأن المهم هو بقاء الأفكار فى أدمغة الأحياء من الآدميين أو تحت تصرفهم ، أو يكون فى وسع الأحياء العثور عليها فى بحثهم عنها ما جدوا فى البحث عنها فيما يثيرهم إلى البحث من محيطهم .

إن الذى لا يقرأ ولا يكتب إطلاقًا ، شأنه شأن الذى يجهل لغة كتاب يزين مكتبه ، فلا تثير رؤيته فى دماغه شيئا ، اللهم إلاّ الحسرة والتنبه إلى أنه كان يمكن أن يزداد وعيا لو أمكنه أن يقرأه ، أو وجد على الأقل من يترجمه له إلى لغة يعرفها . فها هنا قد وجدت مظّنة إثارة فقط ، ولكن لم توجد إثارة يترتب عليها تخاطب وتخاطر أفكار وتلاقحها ثم انتقالها وتفاعلها فى أدمغة بشر أحياء .

بعض الحواة والمنجمين ـ قد يقرأ بعض أفكار من يتعاملون معه وهم فى حال توترهم وقلقهم واستشرافهم ولهفتهم ، فينبئهم ببعض ما يدور حينئذ فى خلدهم ؛ لأنه مرّن نفسه وعوّدها على مراقبة أمثالهم بمزيد من الالتفات والتنبه ، وقد أغنته هذه المراقبة عن الحاجة إلى الرؤية والسماع التى يحتاجها الإنسان العادى الذى يعول دائما على عينيه وأذنيه ، وهؤلاء الحواة والمنجمون لا يستطيعون قراءة أفكار من يتعامل معهم ما لم يعرفوا لغته ، ويعرف هو الآخر لغتهم . فاللغة هى جسر التواصل فى قراءة الأفكار ، لا تتاح هذه القراءة ما لم يكن الطرفان على دراية بلغة مشتركة بينهما . فالعميل الذى يفكر بلغتـه ، يتعذر على المُسْتَقْبِل ـ أن يقرأ أفكاره ما لم يكن على معرفة بهذه اللغة . لذلك لوحظ إخفاق أمثال هؤلاء الحواة والمنجمين فى قراءة أفكار

من يختلفون معهم لغةً . ذلك أن الواقع أن هؤلاء «القراء» لا يخمنون ولا يستنبطون، ولكن يقرأون فعلاً بعض ما يدور فى رؤوس المتعاملين معهم، أو بعبارة أدق : يقلدون ويحاكون أفكارهم ، ويتقاضون ثمن هذا التقليد أو المحاكاة وهم على يقين من ذلك ، ومن أنهم لا ينجمون ولا يتنبأون !!

وربما وجدنا ذلك فى بعض الأطفال حادى التنبه والالتفات ، فهم فى حدة تنبههم والتفاتهم إلى الأب والأم - يعرفون ما يدور فى ذهن الوالدين من الأفكار التى لا يصرحان بها ، ويقلدونها تقليدًا إراديا أو غير إرادى .. ويظهر ذلك فى بعض تصرفات الطفل وحركاته .. وتظن الأسرة أن ذلك قد جاءه من طريق الوراثة ، بينما هو تقليد لأمور تدور فى رأس الأب أو الأم دون أن يفصحا عنها ، يراها الطفل وتنتقل إلى ذهنه فتظهر فى أحلامه وقد تتسلط على سلوكه ، وقد يعرف أو لا يعرف مصدرها ، أو لعله يخاف أن يبوح به أو بها لأحد !! . التقليد والمحاكاة دائرة دوارة فى حياتنا ، لا يخلو منها الفرد كما لا تخلو منها الجماعات !

*****